العلامة محمد البشير إبراهيمي والقضية الفلسطينية

الدكتور/ محمد دراجي.
رئيس قسم الشريعة
بكلية العلوم الإسلامية
-جامعة الجزائر-

تمهيد:

لقد كثرت الكتابات، وتعددت التحاليل حول القضية الفلسطينية، لكونها أكبر القضايا التي واجهت العالم الإسلامي في العصر الحديث، - بعد سقوط الخلافة الإسلامية عام 1924م - ونظرا لأبعادها الإقليمية والعالمية الدينية والحضارية، ومن أهم تلك الكتابات، هاتيك والتحاليل، كتابات المفكر العالمي، الأديب الأريب، والمصلح الكبير، العلامة محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله - الذي كانت له رؤيته المتميزة حول القضية الفلسطينية، فأفردها بمقالات رائعة، وشح بها صدر جريدة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكان لها رواجا كبيرا مشرقا ومغربا عند رجال الفكر والسياسة، والثقافة والأدب.

يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي-رحمه الله- علما من أعلام التجديد الإسلامي الحديث، ومصلحا من كبار المصلحين، بلغ صيته الآفاق، وفك قلمه المغاليق، وحطمت وطنيته الصادقة مشاريع الاستعمار، الرامية إلى مسخ مقوّمات هذه الأمة، وسلخها عن أصالتها وانتمائها الحضاري.

الإبراهيمي وقضايا الأمة العربية الإسلامية: جاء[1] في الحديث الشريف المروي عن النبيﷺ أنه قال "من بات لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"[2] وعملا بمحتوى هذا الحديث الشريف فإن

الإبراهيمي رحمه الله لم تقف القضايا الوطنية على كثرتها وثقلها، حائلا في وجهه على مدّ البصر، إلى التطلع إلى أوضاع أمته العربية الإسلامية، وتحسس أوضاع المسلمين، ومعرفة حقيقة المشكلات التي تواجههم وأنجع الحلول المقترحة لتجاوز تلك المشكلات، ولذا وجدنا الإبراهيمي، يعد من دوافع رحلته إلى الأقطار الإسلامية ما يلي"...والأصل الذي ترجع إليه تلك الدواعي يتشعب إلى أربع شعب: الأولى: دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، وبحث المقارنات والمفارقات القائمة بين تلك الأحوال، ونسبة درجات الانحطاط فيهم إلى درجات الاستعداد للنهوض، وتصحيح الميزان لما تستطيع كل طائفة منهم أن تقدمه إلى الأخريات من العون والماعون، حتى يحصل التعاون بعد تحصيل أهم أسبابه وهو لتعارف"[3] ولذا فلا غرو أن نجد في المقالات التي دبجها يراع الأستاذ الإمام الإبراهيمي، قضايا تخص العالم العربي والإسلامي، منها على سبيل المثال:

-المشكلة الباكستانية.

-المشكلة اليمنية.

-المشكلة المغربية.

-المشكلة التونسية.

-قضية إعدام العلامة " أبي الأعلى المودودي" رحمه الله.

-المشكلة الليبية وغيرها من القضايا الكثيرة.

موقع القضية الفلسطينية من قضايا العالم العربي والإسلامي: لكن القضية الفلسطينية كان لها مكان متميز، وموقع متقدم في اهتمامات العلامة محمد البشير الإبراهيمي بقضايا العالم العربي الإسلامي، فهي بمنزلة الرأس من الجسد، والرّبيع من الزمان، والسويداء من القلب، لذلك قال معلقا على خطبة ألقاها الرئيس محمد نجيب في مقر إحدى الجمعيات

العاملة للإسلام تعرض فيها لقضية فلسطين ما يلي "كانت كلمات القائد البطل عن فلسطين تمس نفسي–وهو يلقيها– مسة الكهرباء فتحرق ولا تضيء، لأنني –يشهد الله– كنت ومازلت من أشد الناس اهتماما بالحادثة، ثم من أشدهم إتباعا بالكارثة، فإذا فاتني كشقوتي– أن أشارك في وقائعها بجسمي فلم يفتني أن أشارك فيها بقلمي، فكتبت مقالات نارية المعنى، قاسية الألفاظ تكاد ترسل شواظا من نار نحاس على المتسببين في تلك الهزيمة المنكرة..."[4] ويصور لنا الإبراهيمي الواقع الذي تركته تلك الكلمات التوجيهية في نفسه فيقول"... وإنما أتحدث عن قلبي، فهو الذي خلق القلوب مضغا سوداء وبث فيها شعلا من النّور كأنها كانت تلك الكلمات نبالا على قلبي تنثال على هدف، ونصالا تتوالى على جريح..."[5].

وإنما كان لفلسطين وقضيتها هذا المكان المتألق في وجدان إما منا الإبراهيمي، لما لها من بعد ديني عقائدي في نفوس المسلمين ومشاعرهم، فهي أرض مباركة بنص القرآن الكريم " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"[6] ومسجدها الأقصى الذي كان أولى القبلتين هو أحد ثلاثة مساجد في الأرض، نهى الرسول الكريم ﷺ عليه أن تشد الرحال إلا إليها، لما قال " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى"[7] –إذ جاء في الصحيح أنّه بني بعد المسجد الحرام، بأربعين سنة، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله أي مسجد وضع أوّل؟

قال المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، قلت ثم أي؟ قال " ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد"[8]

ففلسطين إذن هي الأرض التي باركها الله، ووطئتها الأنبياء وهي أولى القبلتين، وثالث الحرمين[9] مسرى النبي محمد ﷺ..

يقول الإمام الإبراهيمي " يا فلسطين إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمآرب التي يقضيها الشباب، فإن هوى المسلم لك أن فيك إلى القبلتين، وأن فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأنك كنت نهاية المرحلة الأرضية، وبداية المرحلة السماوية، من تلك الرحلة الواصلة بين السماء إلى الأرض صعودا، بعد رحلة آدم بينهما هبوطا، وإليك ترامت همم الفاتحين، وترامت الأينق الذلل بالفاتحين، تحمل الهدى والسلام، وشرائع الإسلام، وتنقل النبوة العامة إلى الأرض النبوة الخاصة، وثمار الوحي الجديد إلى منابت الوحي القديم...."[10]

وبالإضافة إلى هذا البعد الديني العقائدي فهناك بعد آخر وهو البعد الاستراتيجي، إذ تكتمل أجزاء الوطن العربي، وبدونها يسري الاختلال، والتفكك والانحلال، ولقد أدرك هذا البعد إمامنا الإبراهيمي جيدا، فعبّر عنه أصدق تعبير، فقال " إيه يا فلسطين لقد كنت مباركة على العرب، في ماضيك في حاضرك، كنت في ماضيك مباركة على العرب يوم فتحوك فكملوا بك أجزاء جزيرتهم الطبيعية، وجعلوا بك تاج ملكهم الطريف، وأكملوا بحرمك المقدس حرميهم، ويوم اتخذوك ركابا لفتوحهم، وبابا لانتشار دينهم ومكارمهم، ومرابط لحماة الثغور منهم... أنت عتبتهم إلى مصر، وعبرهم إلى افريقيا، وقنطرتهم إلى بحر العرب، لم تطأك بعد أقدام النبيين أطهر من أقدمهم، ولم يحكمك بعد موسى وأشجع من رجالهم..."[11]

وهكذا وضع الإمام الإبراهيمي قضية فلسطين في موضعها الصحيح، فهي قضية متعددة الأبعاد، فهي إسلامية نظرا لما تمثله فلسطين ومسجدها الأقصى المبارك من بعد

ديني عقائدي، بالنسبة للفرد المسلم في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي المترامي الأطراف، وهي - كذلك - قضية استراتيجية لأنها تشكل حلقة الربط، وهمزة الوصل، بين أجزاء المنطقة العربية، إذ بدونها، لا يمكن للمنطقة أن تحقق وحدة سياسية، أو تكاملا اقتصاديا، أو أي عمل تنموي، وهكذا يمكن القول بأن خطاب الإبراهيمي كان سباقا إلى تجاوز الثنائية المفتعلة بين إسلامية القضية وقوميتها، فلا تناقض بين الطرحين وإنما ثمة تكامل وتواصل، وهو الأمر الذي أدركه العقلاء في الاتجاه الإسلامي، والاتجاه القومي، بعد قرابة أربعة عقود من الزمن تبادل فيها الطرفان الاتهامات بالمجان، وضاع فيها وقت ثمين، وجهد كبير، سدى لم تستفد منه القضية الفلسطينية شيئا وإنما استفاد منه الاستعمار وحلفاؤه أشياء كثيرة، وإننا لنثمن الملتقيات القومية العربية الإسلامية، ونعتبرها خطوة في الاتجاه الصحيح، وندعو إلى مزيد من التقارب والتعاون[12]، يقول العلامة محمد البشير الإبراهيمي " إن قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم وهممكم وأموالكم، ووحدتكم وليست فلسطين لشعوب فلسطين وحدهم، وإنما هي للعرب كلهم، وليست حقوق العرب فيها تنال بأنها حق في نفسها، وليست تنال بالهوينى والضعف، وليست تنال بالشعريات والخطابيات، إنما تنال بالتصميم والحزم والاتحاد القوة.

إنّ الصهيونية وأنصارها مصممون، فقابلوا التصميم بتصميم أقوى وقابلوا بإتحاد أمتن منه وكونوا حائطا لا صدع فيه لا يرتفع بالكسالى."[13]

تحليل الحركة الصهيونية وتفنيد مزاعمها وادعاءاتها:

لقد اجتهد الإمام الإبراهيمي في فهم حقيقة الحركة الصهيونية، والأسس الفكرية والدينية التي تقوم عليها والآليات والوسائل التي تعتمدها في تجسيد مشروعها في الواقع ، والجهات التي تدعمها وتمولها وسبب ذلك. فيقول "إن الصهيونية فيما بلونا من

ظاهر أمرها وباطنه نظام يقوم على الحاخام والصيرفي والتاجر، ويتسلح بالتوراة والبنك والمصنع، وغايتها جمع طائفة قدر لها أن تعيش أوزاعا بلا وازع، وقدر لها أن تعيش بلا وطن، ولكن جميع الأوطان لها فجاءت الصهيونية تحاول جمعها في وطن تسمية قولا فلسطين، ثم تفسره فعلا بجزيرة العرب كلها .فهو في حقيقته استعمار من طراز جديد في أسلوبه ودواعيه وحججه وإليها ،تجتمع مع الاستعمار المعروف في أشياء، وتفرق بينهما فوارق، منها أن الصهيونية تعتمد قبل كل شيء على الذهب، تشتري به الضمائر والأرض والسلاح وتشتري به السكوت والنطق، تشتري به الحكومات والشعوب، تعتمد عليه وعلى الحيلة والمكر والتباكي والتصاغر في حينه، وعلى التنمر والإرهاب في فرصته..."[14].

ومن خلال النص يبرز الإمام الإبراهيمي الحركة الصهيونية، بأنها حركة دينية متطرفة، قامت على دغدغة مشاعر اليهود المشتتين في العالم، وأوحت إليهم بأن سبب البلاء الذي يعيشه اليهود هو عدم وجود وطن قومي يجمع شتاتهم ويوحد صفهم كما نص على ذلك التوراة والتلمود. وهي إضافة إلى البعد الديني حركة إقتصادية تجارية كبرى، فهم قد استطاعوا أن يحكموا السيطرة على الإقتصاد العالمي ومصادر الثروة، ولقد احسنوا توظيف هذه القوة الإقتصادية في خدمة مبادئها وتحقيق أغراضهم،ولقد عبر عن هذا المعنى الإمام الإبراهيمي أحسن تعبير لما قال وما الوطن القومي لليهود إلا خيال جسمته الأحلام الدينية والمطامع المادية..." ص494.

وفي إشارة منه إلى البعد الديني للقضية كذلك يقول الإمام الإبراهيمي "ومن غريب ما صنعته الحضارة المادية بأهلها، وما طبعت عليه نفوسهم من جفاف وما ابتلت به ضمائرهم من زيغ وانحراف أن الدول والدويلات التي صوت ممثلوها على تقسيم فلسطين وغرس اليهودية في الجزء الأهم صلبوا المسيح ....، فهل يلام العرب بعد هذا والمسلمون

من ورائهم إذا اعتقدوا أنها حرب صليبية، بعض أسلحتها اليهود، وأنها ممالأة مكشوفة من الدينيين الصالب والمصلوب على الإسلام، نعم وإن كلمة المارشال النبي التي قالها يوم افتك القدس من يد الأتراك لا تزال مأثورة مشهورة، ولا يزال رنينها مجلجلا في الآذان وصداها متجاوبا في الأذهان....."ص504.

وكل دارس للتاريخ يعلم كيف وظف اليهود ورقة المال، في الحرب العالمية الأولى، وكيف دفعوا بل وزجوا بالولايات المتحدة الأمريكية في أتون هذه الحرب إلى جانب الحلفاء، ليستصدروا مقابل ذلك من وزير خارجية بريطانيا اللورد بيلفور وعدا بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، وفي هذا يقول الإمام الإبراهيمي " ولو أن السيوف الانجليزية أغمدت، والذهب الصهيوني رجع إلى مكانه، وعرضت القضية على مجلس عدل وعقل، لا يستهويه بريق الذهب، ولا يرهبه بريق السيوف، لقال القانون: إن ثلاثة عشر قرنا كافية للتملك بالحيازة، وقال الدين: إن أحق الناس بمدافن الأنبياء هم الذين يؤمنون بجميع الأنبياء، وقال التاريخ: إن العرب لم ينزعوا فلسطين من اليهود، ولم يعهدوا لهم دولة قائمة، ولا ثلوا لهم عرشا مرفوعا، وإنما انتزعوها من الرومان فهم أحق بها من كل إنسان"[16].

فاليهود لم يحصلوا على فلسطين بقوة السيف، لأنهم قوم جبناء، وإنما تحصلوا عليها بالمكر والخديعة، وشراء الضمائر والأصوات بالمال، يقول الإبراهيمي " فات اليهود أن يأخذوها بالسيف من العرب، فيكفروا بعد عشرات القرون عن سيئة اجترحها أسلافهم يوم قالوا " يا موسى إن فيها قوما جبارين " فاتهم ذلك فأعوزتهم الخصائص الدموية التي يكونون بها ذلك فلجأوا إلى ما هو الأشبه بهم لا بها، وهو شراء، القوي ليكون لهم معينا، وبحمايتهم رهينا، وشراء المعلنات الدافئة، والأصوات ولو كانت خافتة..."[17]

وبالإضافة إلى هذين البعدين: الديني والاقتصادي هناك بعد ثالث وهو البعد الاستعماري، فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية، أوجدها الاستعمار الغربي أو الإنجليزي بصفة خاصة في المنطقة، من أجل تجسيد سياسة التجزئة، وإضعاف الأمة العربية الإسلامية عن طريق زرع كيان غريب في جسمها يظل مصدر قلق واضطراب لها.

فما حصل اليهود على وعد بلفور (في 02 نوفمبر 1917م) - ولا على صك الانتداب الذي خولته لهم عصبة الأمم عام 1922م، ولا قرار التقسيم الذي صدر لصالحهم في 29 نوفمبر 1947م، إلاّ بمباركة الإنجليز، ودعمهم اللامشروط لليهود، وسعيهم الدؤوب لتجسيد تلك الوعود في الميدان، فهم الذين شجعوا اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وهم الذين دربوا الشباب اليهودي على القتال،.....

يقول الإبراهيمي في مقال بعنوان "الإنجليز حلقة الشر المفرغة " - واصفا دور الإنجليز في خدمة القضية الصهيونية " قد علمتم أنه هو الذي وعد صهيون فقوّى أمله، ولولا وعده لكانت الصهيونية اليوم كما كانت بالأمس، حلما من الأحلام يستغله الشطار ويتعلل به الأغرار.

وعلمتم أنه انتدب نفسه على فلسطين فكان الخصم والحكم في قضيتها، وأنه ما انتدب إلا ليحقق وعده، وأن (لعنه) في ظل انتدابه، وبأسنة حرابة، حقق صهيون مبادئ حلمه، فانتزع الأرض منكم بقوة الإنجليز وقوانين الإنجليز وفتن ضعفاءكم بالخوف، وفقراءكم بالمال..... ولعلمتم أنّ الإنجليز هم الذين سنوا الهجرة بعد الفتح ليكّدنروكم بالصهيونيين، على هذه الرقعة من أرضكم - فلما أشبهتهم بالخطر غالطوكم بالمشروع منها وغير المشروع، ومتى كانت هجرة الوباء والطاعون مشروعة إلا في دين الإنجليز؟

وعلمتم أن بريطانيا هي التي جرّت ضرها البلهاء أمريكا إلى محادتكم وجرّأها على احتقاركم لتكيدها وتكيدكم، ولتحل بالسياسة ما عقده الاقتصاد بينكم وبين أمريكا من صلات، وأنها هي التي ألبت عليكم الأمم الصغيرة ودويلاتها حتى إذا جالت الأزلام وأيقنت بالفوز أمسكت إمساك المتعفف وتظاهرت بالروية والحكمة، وجبرت خواطركم بالحياد، وملأت الدنيا تنويها بهذا الحياد الفاضح فكانت كالقاتل المغزي.....

يا ضيعة الآداب الإسلامية بينكم، إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقد لدغتم من جحر الإنجليزي مرات فلم تحتاطوا ولم تعتبروا، وخدعتم من الجنب الإنجليزي كرات فلم تتعظوا ولم تتبصرّوا .....)[18].

ومن الأدلة الواضحة على التحالف الغربي مع الصهيونية، ووقوفه اللامشروط إلى جانبها ودعمه المطلق لها، موقف الغرب من قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة بقرار مؤرخ في 29 نوفمبر 1949م، وكيف انحازت دولة إلى جانب إسرائيل، انحيازا مكشوفا ومفضوحا، لقد صور الإمام الإبراهيمي هذا الانحياز أصدق تصوير وعبر عنه أبلغ تعبير، فقال تصدع ليل فلسطين الداجي عن فجر كاذب العيان، وتمخض مورد الطامعين في إنصاف أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة عن آل لماع يرفع الشخوص ويضعها في عين الرائي لا في لمس اللامس، وباء الظانون ظن الخير بالضميرين الأوروبي والأمريكي بما يستحقونه من خيبة تعقبها عسرة، تعقبها ندامة، وتكشف ذلك اللبس الذي دام عشرات السنين عن الحقيقة البيضاء وهي حق الشرق لا لي له في الغرب و لا نصير...)).

وجاء بها هذا المجلس الذي يسمونه - زورا- مجلس الأمم المتحدة، شنعاء لا توازي من أحكام القاسطين وأحلام الطامعين))[19].

إذا فلا مطمع لقضية فلسطين أن تجد لها منصفين في الدول الغربية، أوروبية أو أمريكية، فالقضية الفلسطينية لا ولي لها ولا نصير في دول الغرب وحكوماته [20]، كيف وهم الذين أوجدوا هذا الكيان الغريب في جسم الأمة العربية الإسلامية، الذي هو بمثابة خنجر مسموم في خاصرتها، الذي يحول دونها ودون استردادها لعافيتها وصحتها، ووحدتها وقوتها، فمن راح يطلب الإنصاف من الغرب كمن راح يطلب الماء من جذوة النار، ولقد أدرك هذا جيدا الإمام الإبراهيمي... أنصت التاريخ ليسجل الشهادة، واستشرف الكون لينظر هل تخرق للأقوياء عادة ، ونشر الأصل والدعوى وتعارضت البينة والشبهة، وأفصح الحق واتضح، ولجلج الباطل وافتضح، ولكن تلك المتحدة على الباطل ألجمها الحق بحججه، وأجرها الحقيقة بوضوحها فحكموا الانتخاب.....

وليت شعري أي موضع للانتخاب هنا؟ إنّ تحكيم الانتخاب هنا كتحكيم القرعة بين أصحاب الحظوظ المتفاوتة، كصاحب العشر مع صاحب النصف، كلاهما باطل لا يسيغه عقل ولا شرع..... وأي فرق بين ما نعيبه من تحكيم الجاهلية للأزلام الصماء وحصى التصافن، وبين تحكيم أصوات من أموات، دويلات سموهم ممثلي دويلات..."[21].

فالانتخاب الذي أقرته الدول القوية الكبرى، وأجبرت الفلسطينيين الضعفاء على القبول بنتائجه، هو قرار جائر ظالم، يسوي بين صاحب الحق، والمغتصب، ولكنه منطق القوة الذي له يعير للعدل والحق أي اعتبار، ومنطق المصلحة، إذ راعت الدول الغربية مصالحها، وأحسنت حساباتها، فوجدتها في الوقوف إلى جانب الصهاينة الغزاة المستعمرين، لما يملكونه من مال، ومواقع قوة، يؤمرون بها في القرار العلمي، عكس العرب والمسلمين، الذين لا يملكون مثيرا من تلك المواقع، وإذ امتلكوها لم يحسنوا استغلالها بما يخدم، المصالح العليا القومية والدينية، ولقد أدرك هذا جيدا الإمام الإبراهيمي: فكتب مقالا بعنوان

(العرب واليهود في الميزان عند الأقوياء) جاء فيه (إنّ الأقوياء الذين تولوا أمر التقسيم، وحملوا أولئك الضعفاء بالوعد والوعيد على التصويت عليه- ما ارتكبوا تلك الجريمة الشنعاء وغمطوا حق العرب، إلاّ بعد أن غمزوا مواقع الإحساس من العرب، فرأوهم جادين كالهازلين، ورأوا منهم ناكثين كالغازلين، ورأوا في أمرائهم المقاومين على أعنف ما تكون المقاومة والمساومين على أخس ما تكون المساومة، وفي شعوب لهم الجاهل والذاهل، والمتشدد والمتساهل، فبنوا مقدمات الحكم على هذا التفاوت في الكيان العربي، وغرهم بالعرب الغرور، ولم يتبعوا الأيام نظرهم، بل وقعت عينهم على يوم العرب وأغفلوا غدهم، ثم فعلوا الفعلة النكراء فوازنوا بين ما نملك من قوى مادية نستطيع بها الممادة في الجهاد، وبين ما يملك الصهيونيون من ذلك، ودرسوا وقارنوا، واستخدموا الجمع والطرح، فأنتجت لهم المقدمات هذه الحقائق، وهي أننا لا نملك صنعا للسلاح، ولا معملا للكيميء، ولا رجالا فنيين كالذي يملكه اليهود من كل ذلك، وأنّ ثلاثين سنة مرت - وكلها نذر بهذه العاقبة- لم توقظنا من غفلتنا، ولم تدفعنا إلى الاستعداد لها، فقالوا نقسمها ونريح اليهود، لأن لنا فيهم فائدة معجلة، ولا نخشى العرب لأنه ليس فيهم مضرّة مؤجلة...))[22].

ومما يؤكد البعد الاستعماري للحركة الصهيونية، وقوف جميع الدول الاستعمارية على ما بينها من خلاف ظاهري تقتضيه المصالح الظرفية، موقفا موحدا وسدا منيعا في وجه التحركات الشعبية في المستعمرات لمديد العون والمساعدة لإخوانهم الفلسطينيين ،وقد عايش هذا بنفسه الإمام الإبراهيمي مع الاستعمار الفرنسي في الجزائر فقال معبرا عنه "أيها الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة تنسى فلسطين أو تضعها في غير مترلتها التي وضعها الإسلام من نفسها لا والله، ويأبى لها ذلك شرف الإسلام ومجد العروبة ووشائج القربى، ولكن الاستعمار الذي عقد العقدة لصلحته، وإلى حلها لمصلحته، وقليض

بفلسطين لمصلحته، هو الذي يباعد بين أجزاء الإسلام لئلا تلتئم، ويقطع أوصال العروبة كيلا تلتحم وهيهات، هيهات لما يروم.

إن بين دول الاستعمار علائق ماسة ،و إنهن يتباعدن ما دام خيال الشرق و نبيه والإسلام أممه-بعيدة- فإن لاح ذلك الخيال حنت من الاستعمار الدماء، وتعاطفت الأرحام، وتنوسيت الأحقاد. فهلا فعلنا مثل ما فعلوا..."[24].

واجبات فلسطين على العرب المسلمين:

لقد أدرك الإمام محمد البشير الإبراهيمي بثاقب فكره، وسعة إطلاعه أبعاد المخطط الصهيوني، ولذلك راح يرسم الخطط،و يضع التدابير، ويسدي النصائح من موقعه العلمي والفكري، للشعوب العربية و حكام العرب والمسلمين على حد سواء فعسى أن تتكاثف الجهود ويحصل التلاحم بين القادة والجنود، ليخوضوا معركة المصير.

والجدير بالملاحظة أن رؤية الإمام الإبراهيمي لهذه المعركة كانت رؤية متسمة بالشمول ،فهي معركة تبدأ من نفسية الإنسان، وتنتهي بالمواجهة العسكرية، ولذلك كثر اقتراحه البدائل ووضع الحلول، وهي بمجموعها، أن أخذت كاملة واحسن تنفيذها،كفيلة بتحقيق النصر المنشود، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

الكلام لا يغير من الأمر شيئا: أن أول ما يلاحظه المتتبع للصراع العربي الإسرائيلي منذ اندلاعه في العقود الأولى للقرن العشرين، هو أن العرب والمسلمين يكثرون الكلام، يرعدون ويزبدون، ويتوعدون ويتهددون، ويتبارى شعراؤهم في تهييج العواطف، وخطباؤهم في استشارة الكوامن، ويصاحب هذا كله من ألوان التكبير والتصفيق، ومظاهر الهيجان الأخرى .

ولكن بمجرد ما تنفض تلك التجمعات، وترفع تلك المجالس، حتى ينتهي كل شيء، وكأن كل واحد قد أدى واجبه على اكمل وجه وحق له الآن أن يستريح يقول الشيخ البشير الإبراهيمي في هذا الصدد"...ولكن.....هل من الصحيح التفجع والتوجع والتظلم والتألم، والأقوال تتعالى والاحتجاجات تتوالى -هي كل ما لفلسطين علينا من حق ؟و هل من المعقول أن التفجع وما عطف عليه مجتمعات في زمن مقترنات في قرن تدفع حيفا، أو تفل الظالم سيفا أو ترد عادية عاد، أو تسفه حلم صهيون في أرض الميعاد؟لا...والذي أسرى بعيد ه ليلا المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى"[25].

ويقول رحمه الله كذلك "أيها العرب قسمت فلسطين فقامت قيامتكم".

هدرت شقائق الخطباء،و سالت أقلام الكتاب، وأرسلها الشعراء صيحات مثيرة تحرك رواكد النفوس، وانعقدت المؤتمرات، وأقيمت المظاهرات ،فهل كنتم ترجون من الدول المتحدة غير ذلك؟...."[26]

وليس مقصود الإمام الإبراهيمي التقليل من شأن الكلمة الصادقة، والتوجيه المؤثر، والخطاب المحمس، وإنما مقصود ألا يتوقف الناس عند حدود الكلام حتّى إذا انصرفوا كأنهم أدوا كل الواجبات الملقات على عواتقهم، في حين أن المطلوب هو تجسيد ذلك الكلام في خطط، ومشاريع، ترعى بالعناية والمتابعة، حتى يحقق النتائج المرجوة، في حالة التغيير لا بد من بحث الأسباب وتذليل الصعاب. ومعاودة الأمور، وهكذا...

يقول الشيخ الإبراهيمي مقارنا بين موقف اليهود وموقف المسلمين من وعد بلفور، وكيف أن اليهود تذرعوا بالصبر، وتسلحوا بالعمل فحققوا المراد فأما المسلمون فاتبعوا أنفسهم الأماني...

"علم الصهيونيون أن الوعد لا يعد و كونه وعدا،و أن نصه الطري اللين هو أن انجلترا تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود بفلسطين "فاعدوا لتحقيقه المال واعدوا الرجال، واعدوا الأعمال واتخذوا من الوقت سلاحا فلم يضيعوا منه دقيقة، واستعانوا بنا علينا...فاكتسبوا من ضعفنا قوة ، ومن جهلنا قوة، ومن تخاذلنا قوة ومن غفلتنا قوة ومن أقوالنا الجوفاء قوة وأصبحت هذه القوات كلها ظهيرا لهم علينا.

وعلمنا نحن أن ذلك الوعد وعد انجلترا وعد بلفور اليهود عند حاجته إلى ذهبهم كما وعد الشريف حسينا بخلافة شاملة ووحدة كاملة عند حاجته إلى تخذيل الأتراك، وإن الوعود الانجليزية شيء عرفناه بزعمنا ببعضه من بعض، يخلف مع اليهود كما اخلف مع الشريف حسين، وتحامينا الفوارق العظيمة بيننا وبين اليهوديين وعود الإنجليز لنا ووعودهم علينا..

كان الواجب أن نعمل من يوم الوعد لما ينقض الوعد،فنجمع الشمل المشتت والهوى المتفرق، ونقضي على الصنائع التي اصطنعوها منا، ونحارب الواعد والموعود بالسلاح الذي يحاربوننا به، ونعلم أن اليهود لا يكاثروننا بالرجال فرجالنا اكثر، ولا يكاثروننا بالشجاعة فشجاعتنا أوفر وإنما يكاثروننا بالمال والعلم والصناعة فلو كنا ممن يفكر ويقدر ويأخذ بالأحوط الأحزم لبدأنا من أول يوم بالإعداد والاستعداد...[27]

فضعف الجبهة الداخلية، من إفلاس روحي، وانحلال خلقي وفساد اقتصادي واستبداد سياسي هو الذي مكن للعدو من رقابنا جعل الجنس الجبان تاريخيا ينتشي بانتصارات ما كان يحلم بها،بل أسس لأسطورة الجيش الذي لا يقهر.

الدعوة إلى الجهاد: لقد كان الإبراهيمي واضحا في فهم الحركة الصهيونية، وإدراك طبيعتها الاستعمارية وأبعادها العدوانية، فهي حركة استعمارية احتلت أرضا إسلامية فلا بد من جهادها ودفع عدوانها حتى تحرير هذه الأرض، ولا بد من تجييش

الجيوش، و إعلان التغيير العام يقول الابراهيمي "أما الحق الذي مكانه من هـذه المظـاهر مكان البسملة من الروح، فهو ما قام به عرب فلسطين الأبطال الذين كشفوا عن صـواب الرأي القناع، وحذفوا من الجملة حرف الامتناع ونبذوا التردد، واخذوا بالمحافظة، ومحـوا بالسيف ما قال ابن دارة،وفتحوا باب الموت على مصراعيه،"وتآسـوا فسـنوا للكـرام التأسيا".وهذا هو العنوان كتبه عرب فلسطين بالصفائح لا بالاقلام، وهذا هـو الواجـب شرعه عرب فلسطين لجميع العرب"[28] وكلام الإمام الإبراهيمي هذا هو كـلام فقيـه متضلع فيفقه الشريعة وأحكامها، إذ من المقرر في أحكام الفقه الإسـلامي أن كـل أرض إسلامية، وقعت تحت يد الأعداء وجب على المسلمين تحريرها، يبدأ بالواجب ساكن ذلـك البلد. فإن عجز وينتقل الواجب إلى الذين يلونهم وهكذا إلى أن يشمل الواجـب عمـوم المسلمين،، ولا يسقط ذلك الواجب مهما طال الزمن، إذا دار الإسلام لا تتحـول إلى دار كفر أو دار حرب ولم يخالف في هذا إلا جمهور فقهاء الحنفية الذين قالوا بإمكانية تحـول دار الإسلام إلى دار كفر أو حرب بشروط ثلاثة، أحدها إجراء أحكام الكفر ونفاذه فيها، ثانيـها أن تكون متاخمة لدار كفر أو حرب، وثالثها ألا يبق فيها مسلم آمنا بالأمان الأول على نفسه.[29]

وهذا الحق التاريخي يسير الإبراهيمي بقوله إن فلسطين أرض عربية لأنها قطعة مـن جزيرة العرب وموطن عريق لسلائل من العرب، استقر فيها العرب أكثر مما استقر اليهود، وتمكن فيها الإسلام أكثر مما تمكنت اليهودية، وغلب عليها القرآن أكثر ما غلبت التـوراة، وسادت فيها العربية أكثر مما سادت العبرية[30] ويقول في موضع آخر إن ثلاثة عشر قرنـا كافية لتملك حق الحيازة، وقال الدين إن أحق الناس بمدافن الأنبياء هم الذيـن يؤمنـون بجميع الأنبياء، وقال التاريخ: إن العرب لم ينزعوا فلسطين من اليهود، ولم يهدموا لهم دولـة قائمة، ولا ثلوا لهم عرشا معروفا، وإنما انتزعوها من الرّومان فهم أحق بها من كل إنسان[31].

وهكذا يرسم الإمام الإبراهيمي إعلان الجهاد في سبيل الله، سبيلا وحيدا لاستعادة فلسطين وهو في هذا يصدر عن خلفية فقهية تشريعية، إذ من المقدر لدى جمهور فقهاء الشريعة الإسلامية أنه طالما هناك عدو يحتل أرضنا فالجهاد يصبح واجبا عينيا على كل أفراد الأمة الإسلامية ذكورا وإناثا، رجالا ونساء حتى استرجاع الأرض ورد العدوان[32]

نعم قد تفرض الأوضاع العالمية، والتوازنات الدولية على المسلمين وضعا يسميه فقهاء الشريعة الإسلامية، حالة الإستكراه فيجوز للإمام والرعية عقد هدنة، وقبول بعض الحلول الترقيعية، والتسويات غير العادلة، مع وجوب الاستعداد الدائم، والعمل الحثيث، لاسترداد حقوقهم كاملة ولو طال الزمن.

أما مصالحة العدو والدخول معه في اتفاقيات سلام، وتطبيع سياسي كامل وثقافي شامل، وهو ما يزال يحتل أرضا أو يحتجز أميرا مسلما فهو ما أجمعت كلمة فقهاء المسلمين على عدم جوازه[33]، وأن أي تصرف في هذا الاتجاه هو استسلام للعدوان.

وفي إطار الاستعداد الدائم لاسترداد الحقوق كاملة، تكلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن واجبات تجاه الشعوب العربية الإسلامية، وواجبات أخرى تجاه حكام العرب المسلمين، فأما عن واجبات الشعوب فقد فقال "واجب شعوب الشرق العربي أن تندفع كالسيل، وتصيح صهيون وأنصاره بالويل، وأن تبذل لفلسطين كل ما تملك من أموال وأقوات، وما قيمة الأموال المدخرة لنوائب الزمن إذا لم تبذل في نائبة النوائب؟ وما قيمة الأقوات المحتكرة لمصائب القحط إذا لم تدفع بها مصيبة المصائب؟ ووالله يمينا برة لو أن هذه القوى -روحيها وماديها- انطلقت من عقالها، وتظافرت، وتوافت على فلسطين وتوافرت، لدفنت صهيون ومطامعه وأحلامه إلى الأبد، ولأزعجت أنصاره المصوتين

إزعاجا يطير صوابهم، ويحبط ثوابهم، ويطيل حماقهم ويكبت أصواتهم، ولأحدثت في العالم الغربي تفسيرا جديدا،لكلمة عربي..."[34].

فالواجب في حق الشعوب العربية والإسلامية أن تجعل من قضية فلسطين قضيتها الأولى، فتعطيها ما تستحقه من إهتمام، وتجود بالأموال، وتضحي بالأقوات، لا أن تبقى متفرجة وكأن الأمر لا يعنيها، تلقي بالإتهامات على الحكام ورجال السياسة، ولتعلم بأنها - أي الشعوب -بتصرفاتها السياسية والإقتصادية والفكرية، يتحد مصير القضية الفلسطينية، فالدعوة إلى المقاطعة الإقتصادية للسّلع والبضائع التي بها اسرائيل والدول المؤيدة لها الداعمة لمشروعها، ومقاومة التطبيع السياسي والثقافي، يغير الكثير في القدرات الحاسمة التي تتخذها الدوائر الكبرى في العالم، وبتعبير الإبراهيمي السابق "ولأحدثت في العالم الغربي تفسيرا جديدا لكلمة (عربي).

وإلى جانب واجب الشعوب الذي هو الأساس، تحدث الإبراهيمي عن الواجبات الكبرى، والمسؤوليات العظيمة الملقاة على عاتق الحكام، فيقول " وواجب زعماء العرب أن يتفقوا في الرأي ولا يختلفوا، أن يتقوا الزعامة ونقائصها من تطلع لرياسة عاجلة، أو تشوف لرئاسة آجلة، وأن يتوجهوا بنفوذهم وجميع قوى العرب الروحية والمادية إلى جهة واحدة هي فلسطين. وأن لا يفتتنوا بما يفتح عليهم العدو من ثغر في اليمن أو في شرق الأردن. ليشغلهم بالجزئيات عن الكليات وليجعل بأسهم بينهم، وأن يكونوا على اتصال وتعاون مع الحكومات العربية "[35].

فالواجب الأكيد في حق حكام العرب والمسلمين هو أن لا يغلبوا المصالح الشخصية والقطرية الضيقة على المصالح العليا للأمة العربية الإسلامية وقضيتها المركزية فلسطين،

وأن يحشدوا الطاقات الروحية والمادية للأمة وأن يحسنوا توظيفها بما يعود بالفائدة على قضية فلسطين، ويجب التركيز هنا على أمرين

شحذ الفعاليات الروحية للأمة: لأن المعركة مع اليهود طويلة النفس، تتطلب تضحيات جسيمة ، ومشاعر يقظة، والروحانيات هي السلاح الذي يوقظ المشاعر، ويجعل صاحبها يستمرئ التضحيات، وفي هذا يقول للإبراهيمي "ولكن فات أولئك البانين لكل شيء على الماديات أن هناك سلاحا أمضى من جميع الأسلحة المادية، وأنه الشرط الأول في نفعها وغنائها، وهو سلاح الروحانيات من إيمان بالحق، واعتداد بالنفس، وحفاظ على الكرامة، وتقديس للشرف، وإباء للضيم،... "[37]

العمل على تحقيق الوحدة العربية:

والأمر الآخر هو أن يعمل الحكام العرب على تفعيل مشاريع الوحدة، ولم يكتف الإبراهيمي بالدعوة إلى هذا بل بين الأسس والمرتكزات التي تقوم عليها هذه الوحدة "...وما دامت القضية قضية أحلام، فإن لنا في جزيرة العرب حلما... ولكنه اقرب من حلم اليهود لتحقيق، وهي أن تصبح مملكة واحدة، بدستور واحد، وثقافة واحدة ونقد واحد، لا حدود تفرق ولا إمارات تغرب وتشرق، ولا أمراء تمزق أهواؤهم وتمزق، ولم لا تكون دولة واحدة؟ - وإن فيها لأمة واحدة، لا تحتاج في تكبير سوادها إلى الطراق، وشذاذ الآفاق، ولا نحتاج في تعمير بلادها إلى الواغل الذي لا يرحم، وما بيننا وبين ذلك اليوم إلا إفاقة رجل نائم، وصحو جو غائم إن ذلك لقريب، إنه لقريب"... ومعاذ العروبة أن تقضي جزيرة العرب على جزيرة العرب..."[38]

وهكذا فالمسألة واضحة ومحسومة في فكر العلامة الإبراهيمي، وهي وجوب استئصال شأفة الجرثومة الصهيونية، باعتبارها عدوّا وقع على أرض إسلامية، وكيانا غريبا

أريد زرعه لتقطيع أوصال الأمة الإسلامية، وأن التقصير في العمل في هذا الاتجاه، " يجرّ إلى أوخم لنتائج، وأسوأ العواقب " وما أجهل العرب إذا لم يعاجلوا هذه الجرثومة الصهيونية بالاستئصال -إنهم والله - إن لا يفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير...".

وخير ما اختم به هذا البحث هو هذه الوصية الجامعة من الإمام الإبراهيمي إلى عموم المسلمين " أيها العرب، أيها المسلمون، إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا نحن إذا الخاسرون".

الهوامش

1- ذكر الدكتور محمد ناصر بوحجام في مقاله المعنون بـ " القضية الفلسطينية في أدب الإبراهيمي" المنشور في مجلة الموافقات العدد الرابع السنة الرابعة جان 1995، بأن عدد المقالات التي كتبها الإبراهيمي عن القضية الفلسطينية تبلغ 15 مقالا، وأن الإبراهيمي أحسن من كتب عن قضية فلسطين فكرا وأسلوبا وتحليلا.

2- رواه البيهقي، واروه الإمام الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. ج1/ص 480.

3- آثار محمد البشير الإبراهيمي. ج4 /ص11.

4- آثار محمد البشير الإبراهيمي. ج4/ص70 وعنوان المقال هو " صوت من نجيب فهل من مجيب"

5-نفسه.

6- الإسراء.

7- أخرجه البخاري، باب فضل مسجد مكة والمدينة وبيت المقدس، ومسلم كتاب الحج فضل المساجد الثلاثة، وأبو داود والنسائي.

8- رواه أحمد واشيخان بنحوه، البخاري كتاب المساجد، باب ذكراي المسجد وضع أولا.

9- الذي عليه المحققون من العلماء أن المكرم هو ما حرم الله صيد وبناته، ولم يحرم الله عزوجل هذا إلا في مكة باتفا المسلمين، فهو حرم مكة، الثاني المدينة المنورة فهو حرم عند جمهور العماء، الثالث واد بالطائف وهو "وج" هو حرم عند الشافعي وحده، . وعليه ليس بيت المقدس كان يسمى حرما. مجموع الفتاوي ج27/ص15.

10- عيون البصائر. ص491

11- عيون البصائر. ص497-498.

12-انظر في تعدد الاتجاهات في تحديد طابع الصراع العربي الصهيوني، " نحو شريح حضاري لمضوي عربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 - بيروت، 2001، ص 716 وما بعدها.

13- عيون البصائر. ص 494-495.

14-عيون البصائر. ص493.

15- عيون البصائر. ص493.

16- عيون البصائر. ص493.

17- نفسه.

18-عيون البصائر. ص510.

19-عيون البصائر. ص496.

20-لا شك أن الإمام الإبراهيمي يقصد هنا الحكومات الغربية التي تقف شرا وعلنا إلى جانب إسرائيل، وهذا لا يعني وجود بعض الشخصيات السياسية والفكرية وكذا الجمعيات التي أدركت حقيقة الحركة الصهيونية وأنها حركة عدوانية إرهابية فراحت تعمل جاهدة على المستوى الفكري والإعلامي والسياسي لنصرة قضية فلسطين، كما يفكر رجاء جارودي، واللغوي نعوم تشومسكي وغيرهم.....

21-عيون البصائر. ص417.

22-عيون البصائر. ص501.

23- عيون البصائر. ص494،

24- عيون البصائر. ص514،

25- عيون البصائر. ص428،

26-عيون البصائر. ص499.

27- عيون البصائر. ص516.

28- عيون البصائر.ص517.

29- عيون البصائر. ص 494.

30- عيون البصائر. ص 596.

31- انظر في الفصل القيم الذي لقبه الدكتور البوطي. في كتابه الجهاد في الإسلام لماذا وكيف؟- خصوصا الفصل "فلسطين السبيل الوحيد لاستنفاذها. ص 223 وما بعدها"

32- انظر اسهل المدرك، شرح ارشد السالك في فقه إمام الأئمة مالك، للكشناوي ج2/ص18.

33-عيون البصائر. ص517.

34- عيون البصائر. ص 517.

35- عيون البصائر. ص 502، وعليه لم استطع هضم الأفكار التي طرحها المفكر محمد عابد الجابري في عشه " التجدد الحضاري منه منظور المشروع الحضاري" الذي ساهم به في ندوة نحو المشروع حضاري نهضوي الذي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية، وطبعها في بيروت 2001 – ص 852 أين قال:" ذلك أنه لم يعد يمكننا، لا دوليا ولا اقليميا تحقيق الحد الأقصى الذي يشكل الهدف النهائي في الصراع العربي الاسرائيلي لكلا الطرفين إن شعار " من النيل إلى الفرات" الذي رفعته الصهيونية، مثله مثل شعار تحرير فلسطين" الذي رفعته القومية العربية، لم يعد من الممكن اليوم التلويح بأي منهما كبرنامج للمستقبل المنظور".

36- عيون، البصائر. ص 505.

37- عيون البصائر. ص507.

38- عيون البصائر. ص 508.

تم بحمد الله

طبع هذا العدد

بمطبعة رحاب للطباعة والنشر